غلاف الديوان الذي تحدى حدود الساطة

احمد فؤاد نجم في ديوانه الجديد

اصحي يا مصر

حين ضاقت الدنيا في وجه الشاعر التجأ الى قلب الجماهير فحمته

صدر مؤخرا في بيروت ، الديوان الجديد للشاعر الشعبي احمد فؤاد نجم . ويضم عشرة قصائد بخط يد الشاعر ، اصدار دار « الكلمة » بعد ان اخترقت هذه القصائد ، « الاسوار » التي حسبها النظام المصري منيعة ، في وجه الحقيقة ، حقيقة الشعب المصري .

ماذا في القصائد العشر ؟

الواقع ، ان القصائد ، تستحق دراسة اوسع واشمل ، ونكتفي هنا ، بالقاء الضوء على بعض جوانبها ، وببعض الاستشهادات منها فقط . الا ان اهم ما فيها ، بغض النظر عن القيمة الشعرية ، انها جاءت صرخة حقيقية ومدوية في وجه الظلم والفقر والاستبداد ، في وجه الخيانة . خاصة وان الشاعر يقولها من مخبئه ، الذي عجزت كل شرطة وعسس النظام ، عن اكتشافه . لقد نحى الشاعر منحى عبد الله النديم ، الذي اختفى تسع سنوات متواليات بين الناس هو الاخر . مرددا اشعاره ، داعيا لقضية الحرية والديمقراطية .

فلنستمع الى « نجم » وهو يشير ، وكانه ضمير الشعب ، باصبع الاتهام ، الى الخائن والخيانة مخاطبا الشعب بقوله :

« يهوذا خان
اكم يهوذا
وباع مسيح
لا يهوذا دام
ولا جرح بيلازم جريح
مليون يهوذا خان امانك
وانهلك
وفضلت باقي
ع السواقي ومنجلك
يفرش حصير القمح
موق دم المسيح ... »

وفي « اصحي يا مصر » يقول :

« اصحي يا عامل مصر يا مجدع
وانهم دورك في الوردية
مهما بتتعب ، مهما بتصنع
نعبك رايح للحرامية ... »

ثم يتابع :

« اصحي يا جدي
يا نار الشهدا
عمي وخالك واختي واخويك
لجل ما تهدا وتارك يهدا
فرغ تارك ف اللي خانوك » ..

انه يخاطب العامل والزارع والجندي والمثقف الثوري ، داعيا الجميع الى الثورة ، والانقضاض على حكم الخيانة والطغيان .

اما في « رسالة » التي يوجهها الى جنوب لبنان ، فنجد كل الشفافية ، وكل الصدق ، واللمسة الانسانية العميقة في بساطتها :

« جنوب لبنان
الى حضرة ...
عيون الاهل والاوطان .
« وعفوا » عن سبب جهلي
تمام الاسم والعنوان ... »

وتتابع اجزاء القصيدة ، التي يحكي فيها عن الجنوب ، وكانه يعيش مأساة الجنوب ، وصمود فقراء الجنوب، لحظة بلحظة، حيث يقدم الينا نموذج البطل الشعبي المصري زناتي ، الذي ارسلته السلطة الى قبرص لتغتاله ..

وينهي القصيدة الطويلة :

« وطول ما المعركة دواره
ما بين الشعب والجلاد
ما نيش الخوف على الثورة
ولا مستقبل الاولاد » !!

ان مجرد استمرار الصراع ، بين الشعب وجلاديه، هو دليل عافية بنظر الشاعر ، وتاكيد على ان الانتصار الاخير هو من حق الشعب ، كما تعلمنا حتمية التاريخ . وهكذا ، فلا خوف على الثورة ولا على مستقبل الاولاد ...

وبعد « موال فلسطيني مصري » التي يمازج فيها بين الموال المعروف « يامه مويل الهوى يامه يا مويله » وبين الشعر الشعبي المصري ناتي « يا عرب » التي يؤكد فيها ان مصر ، لما تزل وفيه لاخونها العرب ، وما تزال الافق السخي الذي يمكن لنا أن ننتظر منه الف شروق وشروق :

« اللي خانوا العهد بينا
واستباحوا كل حاجه
واستهانوا بالعروبه
مستحيل حيكونوا منا
احنا حاجه وهما حاجه
هما باعوا البندقيه
والوطن والجلابيه
واحنا اصحاب القضيه
احنا ما نبيعش مصر
يا عرب ، يا عرب ، يا اهل مصر .
يطلع الدجال بزيفه
يملا بحر النيل ضباب
ينزل الجلاد بسيفه
يزرع الموت والخراب
يطول الليل زي كيفه
الصباح له الف باب
واحنا بوصلتنا ف ادينا
ما تخافوش م الليل علينا
مهما غبتو عن عنينا
انتو جوا في قلب مصر » .

مثل هذا الكلام ، المكتوب بالعامية المثقفة ، اذا جاز التعبير ، يملاك صدقه ، بالاحساس بعدم قدرتك على التعليق عليه ، لتركه يقدم نفسه بنفسه .

الا ان ثمة ظاهرة في شعر « نجم » هي بساطة التفاؤل وصدقه وعفويته ، حرارة وعمق ايمانه بحتمية انتصار الشعب ، الشعوب ... والتي يعبر عنها عادة بهذه البساطة العميقة والواعية : «الصباح له الف باب ... »

يبقى ان نتوقف عند « استغماية » والاسم من لعبة للاطفال معروفة وباسماء شتى . والتي يتناول فيها صحافة النظام ، وكل نظام :

« وصحافة الصاوي
والورداوي والجمال
وأبائه ولائه
وباقي الـ .... والاندال »

وبعد ان يسلقهم بحديد لسانه ولاذع نقده يحدثنا عن المكان الذي يختبيء فيه ، في نوع من التحدي لعسس السلطة :

« انا ساكن قلبي ومتونس بالناس
والناس الونسه كتير
مالبين القلب وساندينه
سارحين ف الدم وف التفكير
وجنابن قلبي العمرانه
بالناس ، الازهار ، العصافير
سايباله وسايبه اللي يحبه
وتساع معانا رفاقه كتير
شايفين انا فين ؟ »

أجل ، انه في قلب الناس ، الجماهير ، وهم في قلبه ، نبض الشعر والحقيقة فيه . وقلب الجماهير واسع واسع ، يتسع لكل المضطهدين ، الثائرين، يضمهم اليه ، يحنو على جراحاتهم ، ويخبئهم عن أعين السلطة الغاشمة ... « نجم » الذي يعبر امتدادا لعبد الله النديم وبيرم التونسي ، وسواهما من شعراء الشعب ، هو الوجه الاكثر حداثة ، والاعمق ثورية لهذا التراث الطويل ، من الشعراء الشعبيين الثائرين في تاريخ شعب مصر . مصر العروبة ، مصر الفقراء والثورة ... ■

البحث السوسيولوجي

لمؤلفه تيودور كابلوف

نهاية مرحلة التصور السوسيولوجي التجريبي

يتناول المؤلف بفصول الكتاب الستة عملا لمحاضرتين له لعام ١٩٦٨ - ١٩٦٩ في جامعة السوربون الفرنسية ، حول « تحليل بعض كلاسيكيات البحث السوسيولوجي » و « تقنيات البحث السوسيولوجي » .

يبتدىء الفصل ١ بماهية البحث السوسيولوجي، باقامة تيارين منفصلين عن بعضهما ، مكملين لبعضهما : النظرية السوسيولوجية من جهة ، و « السوسيوغرافيا » (علم الاجتماع الوصفي) . ويحاول في عدد قليل من الصفحات أن يبني وحدة البحث ، فيعكف على تحديد المعطيات السوسيولوجية : كالملاحظة ، التحليل الوثائقي والمقابلات .. الخ .

اما الفصلان ٢ و ٣ فانه يمتحن التحقيقات السوسيولوجية والخطوط العريضة لتحضير وادارة مشروع البحث . فيقوم باستعراض في الفصل ٢ من الكتاب التحقيقات السوسيولوجية للتقاليد الاميركية : مدارسها ، تجاربها ، تقاريرها وعلمائها ، فمثلا : مدرسة علم البيئة في شيكاغو ، الفلاح البولوني لتوماس ، الحركية الاجتماعية لسوروكين ، ميدل تاون لروبرت ليندر تيكوبيا لريمون منرث ، يانكي سيتي للهاوثورن ، مجتمع في الشارع لوليم فوت وايت ، التناقض الاميركي لميردال ، الجدي الاميركي لصموئيل ستوفر ، سلوك البيروقراطية الصناعية لغولدرز ، دراسة المستشفيات لستانتون وشوارتز ، بحث حول الكوارث لسبارتون ، حضارة الفقر لاوسكار لويس وعلم اجتماع التنمية لكورترال .. الخ .

اما الفصل ٣ من الكتاب فانه يستعرض الخطوط العريضة لتحضير وادارة مشروع البحث ، فيعكف على تفصيل مراحل البحث الاربع : التحضير ، جمع المعطيات ، التحليل وصياغة التقرير حتى مراحل البحث السوسيولوجي النهائيه .

اما الفصلان ٤ و ٥ فقد خصصهما للتقنيات الاساسية المستعملة في البحث السوسيولوجي : الملاحظة ، الاختبار ، التحليل الوثائقي والتحقيقات بواسطة المقابلات والاستمارات .

اذ يرتكز الفصل ٤ على اهمية الملاحظة في بعض الابحاث التي عرفت بالملاحظة المباشرة كمنهج لها ، مثل : دراسات البيئة لمدرسة شيكاغو وغيرها ، لكنها عانت من « تراجع نسبي » ، لانها « تتطلب تدريبا وممارسة كبيرتين .. وتكلف وقتا وجهدا ومالا » . اما التحليل الوثائقي . فان الوثائق « مؤهلة لان تؤخذ بعين الاعتبار ، حتى ان حياة بكاملها لن تكون كافية لقراءتها » .

والفصل ٥ يبين تقنينات التحقيق اذ « تعرض خلاله على جماعة سكانية مختارة ، اسئلة محضرة سلفا » وانه « اكثر استعمالا في البحث السوسيولوجي » لاستخدامه الاستمارة والمقابلة .

اما الفصل الاخير فقد ارتكز على توضيح اهداف البحث السوسيولوجي .

اننا لا نتوخى الصرامة الاكاديمية المرتجاة برؤيا تاريخية نقدية ، انما فقط ، لاجراء معاينة تجريبية لابحاث اجتماعية تاريخية محددة ، لا تحتاج لتثبيتها في ارض الواقع الى وقائع .

على كل حال ، فقد نشأ الفكر الاجتماعي وتطور في حقب لم يكن اسم « السوسيولوجيا » شائعا بعد ، ولكن وجود المجتمع - الذي هو بالتحليل النهائي : جميع عناصر البنى التحتية (المادية) والبنى الفوقيه (الفكرية) التي شكلت ما يطلق عليها لاحقا اسم (التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية) ، هذه التشكيلة التي تضم مجمل البنى والعلاقات والمؤسسات السالفة والراهنة - كان معروفا ومعترفا به جنبا لجنب مع الوجود الفيزيقي امام النشاط والمعرفة الانسانيين .

تلك « السوسيولوجيا » التي استخدمها وأرسى قواعدها ومبادئها لاول مرة في القرن التاسع عشر اوجست كونت ، الذي اعتبر ان « الفترات الثورية هي اعراض مرضية في الجسم الاجتماعي » (دروس في الفلسفة الوضعية) . فهي ظهرت ، لاكما مينيرفا من رأس جوبتير ، انما في ظل شروط اجتماعية تاريخية للبروتسيس الاجتماعي ، وهي تندرج ، بالتالي ، تحت ردود الافعال والتشنجات لمجابهة النظرية النقدية الحديثة ولمجابهة ممارستها ايضا .

فلكي يسعى « السوسيولوجيون » راهنا ، سعيا حثيثا ، للاجابة على المسائل الجوهرية التي طرحها التطور التاريخي المعاصر على جدول اعمال المجتمع الراهن ، تراهم يلجأون الى انتاجها واعادة انتاجها بالشكل المضاد للحركة التاريخية عامة ، ويقدمون بديلا لها وصفات سحرية لا تعفي من ضرر ، وهم بذلك لا يتخطون عمليا المجال السحري للمجتمع الراهن أيضا .

يستعرض كابلوف في مؤلفه « الابحاث السوسيولوجية » بشكل عام ، لكننا نعثر بهذه « الابحاث » على الخصائص والمميزات الاساسية السائدة للمجتمع الراهن ، وهو حين يستعرض « تطورها » التاريخي اللاحق فانه لا يتخطى مطلقا مبادىء ومضامين المجتمع الراهن ايضا .

على سبيل المثال ، انه في رصده « للابحاث السوسيولوجية » لا ينطلق منها الى قانون عام وشمولي ، بل على العكس من ذلك ، فانه ينطلق من تحليل كل بحث على حدة ثم رصده بشمول خصوصيته ذاتها . انه ، تلخيصا ينطلق من « نتائج » بحوث معطاة في ظل شروط محددة قبليا ، ليستخلص منها قانونا عاما ، هذا القانون الذي هو ذاته في ظل شروط متغيرة اخرى يعطي نتائج متغيرة اخرى ايضا .

اذ ليس باستطاعة « البحث السوسيولوجي » الدقيق ان ينطلق من « علميته » الصارمة ، وان يشكل مجمل تصوراته العامة بمجرد تجريد خصائص معينة للشكل التاريخي المعطى للمجتمع الراهن ، بل « ينبغي معرفة العنصر العام المتضمن في ذلك الشكل الخاص للمجتمع عن طريق التقصي لكل الشروط التاريخية التي تشكل اساس انبثاقه من حالة مختلفة للمجتمع ولشروط التعديل الملموس لشكلها الحالي في ظل شروط محددة وقائمة » . (كورش) .

عندئذ ، وعندئذ فقط ، يستطيع « البحث السوسيولوجي » أن يتحول الى علم دقيق يرتكز على الرصد والتجربة . ان النظرية الثورية النقدية الحديثة ، تمثل بالنسبه لنا : العلم « السوسيولوجي » الاصيل لحقبتنا هذه . وان مهمة تحويل هذا العلم من مهمة التقريض للمجتمع الراهن ، الى مهمة التفضح اليومي لهذا المجتمع ، هي من احدى اهم المهام المركزية التي يجب ان ترتكز عليها الرؤيا النقدية التاريخه .

اما « سوسيولوجيا » كونت ، مل ، سبنسر ، دوركهايم ومن لف لفهم ، فهي لا تقف حيال المشاكل الجديدة التي طرحها التطور التاريخي المعاصر على جدول أعمال المجتمع الراهن ، وقوفا نقديا ، شاملا ومتماسكا ، كما تقف « النظرية الثورية النقدية الحديثة » بثبات ، انما على العكس من ذلك ، فهي تتخذ وتتسلح بالمنهج الاحتباطي والسطحي لوصف مختلف شروط المراحل التاريخية المختلفة بنفس المفاهيم المجردة العامة ، ويقدمون على طبق من ذهب هذه الشروط وكأنها شدت بامراس كتان الى صم جندل ، لا تتغير . ان المفاهيم « السوسيولوجية » حول « الديناميك » و « التطور » التي يتشدق بها جوقة من السوسيولوجيين التقريضيين ، حماة الواقع المعاش وسندته في آن ، فانهم يبقون يراوحون على كل ما هو « ستاتيك لما في الشروط الجوهرية للمجتمع الراهن » .

عرض ونقد : ابو زهرة